انفتاح البلاغة على الأجناس الأدبيّة

قراءة وصفيّة في كتاب: من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة

The openness of rhetoric to literary genres
A Descriptive reading In A Book: From Reduced rhetoric to broad rhetoric

توفيق شعبان
(المركز الجامعي مغنية تخصّص بلاغة عربيّة قسم اللّغة والأدب العربي)
Chabane.toufik14@yahoo.com
أبو بكر محمد
(المركز الجامعي مغنية تخصّص بلاغة عربيّة قسم اللّغة والأدب العربي)
argelino13@live. fr
إسلام ميلاط
(المركز الجامعي مغنية تخصّص بلاغة عربيّة قسم اللّغة والأدب العربي)
milatislam682@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2020/10/13	2021/03/08	2021/06/01

الملخص:

تروم هذه الدّراسة تسليط الضّوء على المشروع البلاغي والنقديّ للدّكتور المغربيّ محمّد مشبال، وبيان نظرته إلى العلاقة القائمة بين البلاغة والأجناس الأدبيّة، وذلك بعرض قراءة مجموعة من الباحثين لأبرز أعماله وأهمها، ومقارباتهم لمشروعه الرّائد من خلال تلك المؤلفات والبحوث، على غرار: بلاغة النّادرة، البلاغة والسّرد، من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة، البلاغة والأدب؛ من صور اللّغة إلى صور الخطاب... لنخلص في الأخير إلى السّمات والخصائص الّتي تعد مرتكزات وأساطين المشروع المشباليّ، المنطلق أساسا من ضرورة الانفتاح على شتّى أنواع الخطاب، بغية الخروج من هيمنة البلاغة الأدبيّة المختزلة نحو بلاغة جديدة ومتميّزة، ذات آفاق رحبة.

الكلمات المفتاحية: محمّد مشبال ؛ البلاغة والأجناس الأدبيّة ؛ البلاغة المختزلة؛ البلاغة الرّحبة ؛ البلاغة والأدب.

Abstract :

This study aims to shed light on Doctor Mohammad Michbel's rhetoric and critique of Moroccan , and his view to the relationship between rhetoric and literary genres, through our offer to read a group of researchers of his most prominent and most important works, and their approaches to his pioneering project through literature and research, on: Rhetoric of Rhetoric, Rhetoric and Narration, From minimalist rhetoric to broad rhetoric, rhetoric and literature; From pictures of language to images of discourse ...

To conclude, with the features and characteristics that are the pillars and pillars of the Al-Mashbali project, which is basically based on the necessity of openness to various types of discourse, in order to break out of the dominance of literary rhetoric that is reduced to a new and distinct rhetoric with broad horizons.

بسم الله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وبعد:

السَّلام[1] عليكم ورحمة الله وبركاته.

تمهيد:

نظّم مختبر التّرجمة وتكامل المعارف مع مركز الكنديّ للتّرجمة والتّدريب بمراكش (المغرب) ندوة وطنيّة في موضوع: من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة؛ قراءة في أعمال البلاغيّ الدّكتور محمد مشبال يوميّ: الأربعاء والخميس: 23/22مارس2017 بقاعة المحاضرات بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بمرّاكش. قدّم فيها مجموعة من الباحثين مقاربات وقراءات لمختلف أعمال د. مشبال والّتي ترسم مشروعا متميزا وجديدا، يرتقي بالبلاغة العربيّة نحو أفق رحبة، نُقِلت فيها البلاغة من صورتها المختزلة إلى بلاغة جديدة موسّعة كما تصورها الدّكتور محمد مشبال.

طُبِعت هذه المداخلات في كتاب تتجاوز صفحاته المئتين، صدر عن عالم الكتاب الحديث بإربد الأردن سنة 2017، نسّقه الدّكتور عبد الواحد المرابط مع مجموعة من الباحثين والأكاديميين، جاء في مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة.

يأتي الفصل الأوّل موسوما بـ: **من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة**، عقِب تقديم الأستاذ عبد الواحد المرابط للكتاب، وفيه مقالتان:

01- البلاغة والتّداول؛ قراءة في البلاغة العربية الجديدة. د. عبد الرّحيم وهابي

نوّه د. عبد الرّحيم وهابي في مقاله هذا بالمجهودات العظيمة لأبرز البلاغيين العرب الّذين حاولوا قراءة البلاغة العربيّة بمنظور تداوليّ حجاجيّ (حمّادي صمّود، محمّد العمري، محمّد الوليّ، محمّد مشبال، عبد الله صولة، سامية الدّريدي) حيث أسهموا من خلال بحوثهم المعمّقة في نقل البلاغة العربية من صورتها المختزلة التي تهتمّ بالشّعر والبديع، إلى بلاغة حجاجيّة جديدة

تبحث في مختلف أشكال الخطاب. يقول في هذا الصدد: نخلُص إلى أنّ المبحث التّداولي شكّل نقطة ارتكاز التقت عندها مجهودات البلاغيين العرب الجدد. وهي مجهودات بدأت بإعادة قراءة البلاغة العربيّة القديمة قراءة جديدة، تكشف أبعادها الحجاجيّة، وتخلّصها من أسر المحسنات وهيمنة الصّورة الشّعريّة، ومرّت عبر كشف نجاعة المنظور التّداولي في مقاربة مختلف أشكال الخطاب خاصّة من خلال بلاغة الحجاج الّتي شكّلت موضوع الكثير من الدّراسات البلاغيّة.[2]

وأشاد الباحث بعدها باهتمام وتركيز مجموعة من البلاغيين على نظريّة الأفعال الكلاميّة ودراستها (خالد ميلاد، مسعود صحراوي، شكري المبخوت...) نظرا لما تتيحه من إمكانات تطبيقيّة لتحليل الخطابات، وأشار - مركزا - إلى أنّ ازدهار البلاغة العربيّة مرهون بضرورة تقاربها وتعاطيها مع بقيّة العلوم المتاخمة لها كالفلسفة والمنطق واللّسانيات...

02- في مؤسّسات الخطاب الإقناعيّ؛ من تخوم البلاغة إلى رحابة الحجاج. د.عبد الكريم ابزاري

يؤكد الباحث على الدّور الذي تلعبه الأدوات البلاغيّة (بنائيّة، جماليّة) في خلق البعد الإقناعيّ داخل الخطاب نتيجة التّفاعل الحاصل بينهما، دون إغفال لمكونات بناء الخطاب خاصّة المكوّنات اللّسانيّة. ويرى أنّه لابدّ من توفر أهداف ثلاثة في بنائية الخطاب: الإفادة، والإمتاع، والإثارة.

ونتيجة لهذا التداخل والتفاعل بين المقومات البلاغية والحجاجيّة ينتج ما يسمى بالخطاب الإقناعيّ المؤثّر.[3]

أمّا الفصل الثانيّ فعُرض في الكتاب تحت عنوان: **قـراءات في أعمال محمّد مشبال** ويتضمن ستّ مقالات دقيقة ومعمّقة، تبسط القضايا الّتي تناولتها أعمال ومؤلفات الباحث:

01- في تجلّيات البلاغة الرّحبة عند محمّد مشبال. د.رشيد شعلان.

أشار الباحث إلى ضرورة إعادة النظر في الحدود الدّاعية إلى الفصل بين المعارف. كما أشار إلى الظروف الّتي صاحبت تشكّل البلاغة في التّراث العربيّ (القرآن الكريم وأسرار إعجازه، والتّشكل الشّعري) ممّا جعل المنجز الكلاميّ حينها مقتصرا على شيء من القرآن الكريم، وكثير من الشّعر المحدد بعصر الاستشهاد، وقليل من الأقوال المأثورة، وهي ظروف ساهمت بشكل أو بآخر في التّمكين لسلطة الشّعر والتّمكين له دائما، لتختزل البلاغة في حيّز ضيّق حتّم خروج بقيّة أجزاء البلاغة خارج الرّصد.

يشيد الباحث برؤية محمّد مشبال في مشروعه خاصّة من خلال مؤلفه: البلاغة والأصول دراسة في أسس التّفكير البلاغيّ عند العرب- نموذج ابن جنيّ (2007) و كذا تعميقه لمسألة الوعي بضرورة إعادة تصوّر البلاغة على نحو أوسع من خلال اعتبارها علما مدوّنته (موضوعه) مطلق الكلام، للخروج بها من دائرة الضّيق إلى تجلّيات الرّحابة، تشمل فيها البلاغة أنواعا مختلفة من

النّصوص، مثل النّادرة، والخبر، والرّسالة، والشّعر، والرّواية. قال محمّد مشبال: البلاغة تتّسع حدودها لرحابة الإبداع الأدبيّ الإنسانيّ.[4]

ويخلص الباحث في الأخير إلى القول: إنّ البلاغة علم استعمال اللّغة، وهي موجودة ضمن المعارف الإنسانيّة لا باعتبار منجزها البنيويّ وحسب، وإنّما باعتبار وجودها الوظيفيّ القاضي بتحقيق حدّ من الانتفاع في دورة الخطاب (التّعبير والتّبليغ والتّأثير) وهو البعد التّداوليّ في عمليّة التّواصل الّذي توصف به المقولة البلاغيّة باعتبارها الجوهر. بينما تمثّل التّشكيلات البنيويّة المختلفة تجلّيات بلاغيّة خاصّة باعتبارها أداء خاصا من حيث مصدره (المتكلّم) ومرجعيّته ومقامه وشكل أدائه.[5]

02-البلاغة الأدبية وتحليل الخطاب عند محمّد مشبال. د.محمد مرزاق

يبدأ بعرض مفهوم البلاغة عامّة ليحيل إلى البلاغة عند محمّد مشبال بالخصوص الّذي لم يقدم تعريفا محددا ومقيدا للبلاغة، ويستنتج الباحث ذلك على ضوء مرحلتين (حياته في مصر/ حياته في المغرب):

الأولى: "إنّ البلاغة دوحة مترامية الفروع وحقل قائم على التّنوع"[6] حيث أخرج مشبال بهذا التّعريف البلاغة العربيّة من ربقة البلاغة المدرسيّة الضّيّقة لتتفتح على بلاغات متعددة.

الثانيّة:" البلاغة إمبراطوريّة حقيقيّة أكثر اتساعا وصلابة.."[7] حيث اجتهد مشبال مستفيدا من الدّرس البلاغيّ الغربيّ، واحتكاكه بالزّملاء الرّواد في الدّرس البلاغيّ الجديد في المغرب ليوسّع مفهومه للبلاغة. فبدل أن تكون بلاغة واحدة، صارت في تصوره بلاغات متعدّدة ومخصوصة. هذه هي النّظرة المشباليّة الموسّعة لبلاغة لا حدود لها، والّتي أضحت امبراطورية مترامية الأطراف.

ثم ينتقل بنا الباحث إلى مفهوم البلاغة الأدبيّة عند مشبال الّذي يرى: أنّها بلاغة رحبة منفتحة تتجاوز التّقنين والتّقعيد، كما تنأى عن الجمود والتّعصب.[8] ويضيف: إنّ البلاغة الأدبيّة تزاوج في دراستها بين النّظر في بنية النّصّ الأدبيّ، والنّظر في وظائفه...[9]

بعد ذلك عرّج الدّكتور مرزاق إلى تجلّيات تحليل الخطاب عند مشبال، في ضوء بلاغته الرّحبة، من خلال مناقشة وتحليل نماذج من أعماله التطبيقية (النّادرة – الخبر- الرّواية) ليختم مقالته بقول **لمحمّد أنقار** في تقديمه لكتاب بلاغة النادرة لمحمد مشبال: "... فمشبال لا يرفض طلب القيمة الأدبيّة وراء عمليّاته النّقديّة، ولكنّه إذ يقيّم ويبدي حكمه تراه يجنح في الوقت ذاته إلى أن يأتي حكمه متّسقا مع باقي تفاصيل رؤيته النّقديّة.[10]

03-بلاغة السّرد؛ في كتاب" البلاغة والسّرد" لمحمد مشبال. د.سعيد جبار

بعد تمهيد وجيز للموضوع، عرض الباحث الكتاب وموضوعه، وهو: البلاغة والسّرد جدل التّصوير والحجاج في أخبار الجاحظ (الصّادر سنة:2010) حيث طرح إشكاليته: كيف يؤسّس محمّد مشبال بلاغة السّرد من خلال نصوص الجاحظ؟ ثم صرّح أنّه سيقف بإيجاز عند أهمّ القضايا المحوريّة الّتي أثارها الكاتب المؤلف لعدم اتساع المجال. يشير إلى أوّل قضيّة وهي قضيّة المصطلح، وتعدّ المحور الأساس الّذي يعالجه الفصل الأوّل خاصّة مصطلح التّجنيس وما يثيره من إشكالات، ليحيلنا الباحث إلى قضيّة ثانيّة بعنوان: الخبر بين المرجعيّ والتّخييليّ، وهو إشكال ثان تم الانتقال بعده للحديث عن بلاغة السّرد الّتي مثّلها مشبال في ثنائيّة (تصوير/ حجاج) وقد طرح الباحث بشأنها عدّة تساؤلات ليقف على أهمّ المفاهيم والتّصورات، ولعلّ من أهمّ التّساؤلات: هل الخبر السّردي قائم بين التّصوير والحجاج؟ أم بين التّصوير والاستدلال؟ أم بين التّمثيل والتّعبير؟

وتتلخّص بلاغة السّرد حسب محمّد مشبال في كونها بلاغة تأثيريّة بدرجة كبيرة، حيث يقول: في كتاب "البخلاء" يسعى السّرد بالإضافة إلى متعة التّصوير القصصيّ، لنموذج إنسانيّ وتعميق خبرة القارئ بالحياة الإنسانيّة إلى بناء الأخلاق، وتوجيه الأفعال نحو قيم الجود والسّخاء الّتي ميّزت العرب.[11]

يرى الباحث في ختام موضوعه أنّ كتاب محمّد مشبال: (البلاغة والسّرد) بمفاهيمه وتصوراته يعدّ محاولة لتأسيس مفهوم جديد للبلاغة، وهي بلاغة رحبة ومتشعّبة ومغرية وقد دعا إلى ضرورة مضاعفة الجهود وتوحيدها؛ لِلَمّ شتات هذه البلاغة المنفتحة على شتّى العلوم.[12]

04-تأصيل محمّد مشبال لبلاغة السّخرية في كتابيه: "بلاغة النّادرة" و"الحجاج والتّأويل في النّصّ السّردي عند الجاحظ" د.رشيد أعرضي

يبدأ الباحث مداخلته بتقديم يذكر فيه سبب الجمع بين كتابيّ محمّد مشبال: "بلاغة النّادرة" و"الحجاج والتأويل في النّص السّردي عند الجاحظ" في هذه الدّراسة؛ بحيث يعدّهما أرضيّة المفاهيم والمنطلقات الكبرى الّتي تؤسّس لبلاغة السّخرية عند مشبال.

وقد أشار الباحث إلى تأثّر واهتمام مشبال بأعمال الجاحظ، فقال: أصبح مهتما بنثر الجاحظ وبلاغته.[13] بعدها يعرض قراءات محمّد مشبال لمؤلّفات اهتمت بنثر الجاحظ قبل إصدار "بلاغة النّادرة" (طه حسين- أحمد الشايب- البشير المجدوب- ضياء الدين الصّديقي- شوقي ضيف- فكتور شلحت) وهي قراءات تقليديّة وسطحيّة المضامين في نظر محمّد مشبال؛ لأنّها لم تفلح في

تحليل النّادرة أو الخبر واكتشاف سماتها الجماليّة. وأضاف قراءات متأخّرة أشارت إلى سؤال التّخييل والحجاج في نثر الجاحظ، ولكنّها هي الأخرى لم تفلح في مقاربة الرّؤية المشباليّة. ليخلص بنا الباحث إلى طرح الإشكاليّة الّتي يوضح بعدها رؤية محمّد مشبال في دراسته للنّادرة وتأصيله لبلاغة السّخرية فيها: كيف أصّل محمّد مشبال لبلاغة النّادرة، ومن خلالها لبلاغة السّخرية؟

في الجزء الثّاني الّذي جاء تحت عنوان: قراءة مشبال لنثر الجاحظ، وقف الباحث على أهمّ التّصورات النّقديّة الّتي انطلق منها مشبال محاولا التّأصيل لبلاغة السّخرية فحلّل، وبسط العديد من السّمات والمكوّنات الخاصّة بالنّادرة المذكورة في "بلاغة النّادرة" وأقام المقارنات مع الدّراسات السّابقة ليخلص بنا إلى خاتمة يقول فيها: السّخرية تستمد بلاغتها من خلال مضامين النّادرة، وهي بلاغة أخلاقيّة تسعى إلى إصلاح المجتمع وجعله متناغما منسجما يتّصف أفراده بأخلاق الشّجاعة والصّدق والكرم.[14]

05-بلاغة النّادرة بين المنجز والآفاق من خلال المنجز النّقدي لمحمّد مشبال. د.سليمان الطّالي

يقول الباحث في نهاية مقالته: وقد أتاحت لي هذه الدّراسة الإفادة منها وتوسيعها وتطويرها في كتابي: "بلاغة النّادرة في الأدب العربيّ" فقد شكّل هذا التّصور البلاغيّ الأرضيّة الّتي انطلقت منها في المقاربة التّجنيسيّة للنّوادر، والّتي أقصد بها تحديد ثوابت ومقومات النّادرة وسماتها النّوعيّة من جهة، والكشف عن أنماط التّعالقات القائمة بين النّصّ وغيره من النّصوص، أو بين النّصّ وجنسه من جهة أخرى.[15]

يعدّ القول السّابق اعترافا ضمنيا بالقيمة العلميّة الرّفيعة للمشروع العلميّ البلاغيّ لمحمّد مشبال، ودليلا هاما يؤكّد نجاح هذا الباحث في خلق تصوّر جديد للبلاغة العربيّة يسمو بها نحو أفق رحبة.

المقالة عبارة عن تتبّع كرونولوجيّ لتطوّر المشروع البلاغيّ لمحمّد مشبال من خلال مؤلفاته وترجماته، وقد ركّز الباحث على هذا المشروع البلاغيّ الّذي ابتدأه صاحبه بالاهتمام بالتّحليل البلاغيّ الأسلوبيّ والجماليّ الخالص لبعض الأجناس الأدبيّة، كما هو الشّأن في كتابيه: مقولات بلاغيّة في تحليل الشّعر وبلاغة النّادرة، ثم تطوّر واكتمل من خلال انفتاحه على المكوّن الحجاجيّ، ومراعاة المكوّن التخييليّ والتداوليّ في المقاربة البلاغيّة للنّصوص السّرديّة كما هو الشّأن بالنّسبة لكتابيه:" البلاغة والسّرد، و "خطاب الأخلاق والهويّة في رسائل الجاحظ"[16] وهي قراءات منسجمة تصبّ بثقلها كاملا في خدمة رؤية صاحبها.

بين المنجز والآفاق لبلاغة النّادرة سؤال أنهى به الباحث دراسته، وخلص بعده إلى أنّ المشروع البلاغيّ لمحمّد مشبال انطلق من نظرة جديدة ومعاصرة، تعتمد مقاربة النّصوص موضوع الدّراسة من خلال تحليلها وتفسيرها كآليّة وحيدة للتّعرف على خصوصيّة الجنس وبلاغته، كما يركّز على ضرورة ربط هذه التّحليلات والتّفاسير بالإطار النّوعيّ الّذي تندرج فيه هذه النّصوص، مع الاعتماد على مختلف الحقول المعرفيّة المختلفة والإفادة منها، ويدعو الدّارسين إلى البحث الجادّ في بلاغة النّادرة والسّعي إلى تطويره.[17]

06-البلاغة الرّحبة في بلاغة النّادرة. د.عبد الله موساوي

تتبع الباحث في مؤلف: "بلاغة النّادرة" رؤية محمّد مشبال من التّصورات النّظريّة المعتمدة من قبل المؤلف مرورا بتجلّيات البلاغة الرّحبة في نوادر الجاحظ على المستوى الإجرائيّ التّطبيقيّ ليصل إلى نتائج نلخّصها فيما يلي:

- كشف محمّد مشبال لرصيد هائل ومهم من البلاغة العربية الرّحبة ممثلة في سمات مميّزة، كانت متوارية عن أنظار كثير من الباحثين.

- إخراج النّثر السّرديّ القصصيّ من غطاء وهيمنة البلاغة العربيّة، نحو بلاغة خاصّة بهذا النّثر وبمكوناته المختلفة عن جنس الشّعر.

- جماليات النّثر السّرديّ القصصيّ تظهر في بلاغته النصّية لا الجزئيّة.

- تميّز السّرد الحكائيّ بجماليّة بلاغيّة جمعت بين المكوّن الحجاجيّ الإقناعيّ والتّأثيريّ التّداوليّ.

- فتح الآفاق نحو البحث لإعادة قراءة الموروث السّرديّ القصصيّ على ضوء النّظريات الحديثة لاكتشاف محمولات دلاليّة جديدة لهذه النّصوص والخطابات.[18]

ويأتي الفصل الثّالث بعنوان: **مشروع محمّد مشبال في ضوء النّظريات المعاصرة** وفيه مقالة واحدة موسومة بـ:

01- أيّة بلاغة لأيّ أدب؟ د.عبد العزيز أيت بها/ د.حسين كتانه.

بدأ الباحثان بتوطئة بسطا فيها تمهيدا وجيزا عن البلاغة، وما تثيره من تساؤلات كبرى خاصّة في العصر الحديث كسياق عام، للانطلاق من مؤلف محمّد مشبال" البلاغة والأدب" حيث طرحوا عديدا من الإشكالات وعالجوها في ثلاثة مباحث:

أ- البلاغة وجدل الإمتاع والإقناع: وفيه عمد أصحاب هذا البحث إلى عرض تصور محمّد مشبال لمقاربتيّ الإمتاع والإقناع، وخلصوا إلى أنّه يرى البلاغة قادرة على الجمع بين دراسة الأدب والحجاج في آن واحد مؤيدا رأيه هذا بمسوّغات ذكروها وعلّقوا عليها.

ب- بلاغة الصّورة وبلاغة السّمات: وفيه توضيح للمحورين الأساسيين اللّذين بنى عليهما محمّد مشبال الاستراتيجيّة الخطابيّة، كما بينا ما بينهما من اختلافات:

- نقد بلاغة الوجوه والصّور المقنّنة.

- الاحتجاج لبلاغة السّمات.

ج- البلاغة العامّة والبلاغة النّوعيّة أو البلاغة وخصوصيات الأجناس الأدبيّة:

لا ينفي محمّد مشبال البلاغة العامّة باعتبارها علما يهتمّ بتحليل الخطابات، ولكنّه يرفض البلاغة المعممّة الّتي لا تراعي خصوصيّة الأجناس الأدبيّة وخصائصها وجمالياتها النّوعيّة باعتبار أنّ التّحولات الجماليّة للسّمات والصّور الأدبيّة تتأثر بسياقات الأجناس والأنواع الأدبيّة.[19]

وفي الختام يقولان عن المشروع المشباليّ من خلال قراءتهما لمؤلفه البلاغة والأدب: تتعدّد القضايا والإشكالات الّتي تطرّق لها الدّكتور مشبال في كتابه البلاغة والأدب، وكل منها يمثّل جانبا مهمّا من جوانب مشروعه العلميّ حول البلاغة، هذا المشروع الّذي اختار له مفهوم "البلاغة الرّحبة" لكونها تنفتح على مختلف أشكال الخطاب وأنواعه، وتتّسع لدراسة أساليب وسمات التّعبير الأدبيّ اتساعها لمقاربة وظائفه وسياقات تداوله، إنّها بلاغة كليّة قادرة على مقاربة كافّة أنواع الخطابات والخوض فيها، سواء منها الخطاب التّخييليّ الجماليّ، أو الخطاب الإقناعيّ التّداوليّ، وبلاغة خاصّة نوعيّة لأنّها لا تسقط في التّعميم بل تستحضر خصائص الأجناس والأنواع الأدبيّة، وهي بلاغة نصيّة سماتيّة ترفض التّقعيد والتّقنين والوجوه المحدّدة سلفا، لأنّها تنطلق من التّحليل النصّيّ الّذي ينصت لنبض النّصوص وينفتح على الإمكانات التّعبيريّة، لكنّها في الآن نفسه بلاغة منضبطة، يقودها الذّوق الأدبيّ المدرّب، والحسّ النقديّ، كي لاتسقط في الانطباعيّة المفرطة.[20]

قراءة في بلاغة النّادرة لمحمد مشبال:

في هذا العرض محاولة لإبراز مشروع البلاغة الرّحبة للدّكتور المغربيّ محمّد مشبال الّذي يعدّ من أبرز العلماء المهتمين بتطوير وتجديد الدّرس البلاغيّ العربيّ الحديث، وذلك من خلال مقاربة مؤلفه: "بلاغة النّادرة" الصادر سنة (1997) في طبعته الأولى عن دار جسور للطّباعة والنّشر

بالمملكة المغربيّة. والّذي ركّز الاهتمام حول فنّ النّثر، وبالخصوص النّادرة كجنس أدبيّ، منطلقا في تصوّره لبلاغة رحبة تتجاوز في مفهومها البلاغة المعياريّة، محللا نثر الجاحظ. بالاعتماد على ثقافته وتكوينه، ومنفتحا على النّظريات الغربيّة رأى أنّه يجب على البلاغة أن تتّسع دائما وتنفتح على النّصوص، ولابد عليها أن تخرج من أسر الأبواب المغلقة والدّهاليز الضيّقة إلى آفاق الإبداع، وإلى استخراج سمات أخرى لانهائيّة للنّصوص النّثريّة وأن لا تبقى في سجن الطّابع المدرسيّ التّقنينيّ الّذي اختزلها.

وقد كتب "بلاغة النّادرة" إيمانا منه بغنى التّراث السّرديّ العربيّ وتنوّعه، وعمد إلى كتابات الجاحظ ونثريّاته وبشكل خاصّ البخلاء، لأنّها في نظره في حاجة إلى استجلاء خصائصها وسماتها لتتميز عن بلاغة الشّعر.

انكبّ الباحث على كتابة تصوّره مستندا على ما خلّفه الجاحظ من كنوز نثريّة أهمّها" البخلاء" الذي عكف على تحليل نصوصه تحليلا دقيقا، ليقدّم لنا في الفصل الأوّل من كتابه: "بلاغة النّادرة" سمات حكي الجاحظ وهي توحي ببلاغة رحبة تختص بها النادرة: العُريُ - التّصوير- الطّرافَة- التّعجِيب- الضّحِك.

العُريُ:

وهو السّمة الأولى من سمات الجماليّة في النّادرة" فلم تعد الفصاحة تمتلك حقوق بلاغة الخطاب، كما أنّ مقوّمات البديع لم تعد قادرة على ضمان هذه الحقوق في جميع المواقف؛ ففي الخطاب الفكاهيّ تفقد الفصاحة والجزالة كل ماتحوزانه من قوة التّأثير، كما أنّ المحسّنات البديعيّة الّتي اعتبرت علامة على بلاغة أنماط خطابيّة كثيرة، تتعطل وظيفتها الجماليّة في خطاب يتوخى الضّحك والتّسلية. ولعل هذا يكون مسوغا لاختيار الجاحظ الفنيّ واستخدامه لنمط الحكيّ العاري، ولكنّه عُري شبيه باللّبس؛ ذلك أنّه يمتلك وسائله الخاصّة الّتي تنسج بلاغته"[21]

يتساءل محمّد مشبال: هل كان الجاحظ يراهن على مقومات بديلة تقوم مقام بلاغة الشّعر؟ ثم كأنّ الجاحظ استشعر خطورة الرّؤية النّقديّة الّتي تدين جنسا أدبيا بمعايير جنس أدبيّ آخر.[22]

التّصوير:

تصوّر نوادر الجاحظ في "البخلاء" الحياة الاجتماعيّة آنذاك وتصفها كما كانت في الواقع بدقّة وتفصيل (الشخصيات، الأماكن، والمدن، والعواطف، والمشاعر...) ليبرز التّصوير كسمة

جليّة في حكي الجاحظ ونوادره، فهو يروم الارتقاء بالتّصوير الأدبيّ إلى رتيبة المحاكاة.23 ويظهر ذلك من خلال النّصوص الّتي حلّلها الباحث لإبراز هذه السّمة وتأكيدها(صورة الذباب، صورة الأكول الشّره)[24]

الطّرافَة:

وهي عنصر يمثل أحد المكونات الجماليّة الّتي لاذ بها الجاحظ في بناء حكيه وتوصيل أخباره، وإحدى الأدوات الّتي استعان بها على السّخرية، قال الجاحظ في تقديمه لكتاب البخلاء: ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبيّن حجّة طريفة، أو تعرف حلية لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الجدّ.[25]

التّعجِيب:

التّعجيب سمة متميّز من السّمات الّتي يقوم عليها كتاب البخلاء؛ إذ تختلف عن النّوادر الّتي تعرض الحجج الطّريفة، أو الحيلة المتنوّعة الّتي يعمد إليها البخلاء في أقوالهم وأفعالهم وهي تعتمد في بلاغتها على الغرابة والعجب، وقد مثّل لها محمّد مشبال في كتابه بقصة أبو عبد الرحمن آكل الرّؤوس، وقصّة ليلى النّاعطية الخرقاء مرقعة القميص. وتستأثر هذه السّمة بتنويعات كثيرة لعلّ التّفسير يظهر ويكشف عنها.[26]

الضّحِك:

شكّل الحكي في كتابات الجاحظ مجالا خصبا لتوليد الضّحك.[27] فالضحك من أهم العناصر وأبرزها لدى الجاحظ والذي يبتغي من خلاله بلوغ غايات بعيدة، تجعل من هذا الضّحك سمة فنية متعددة المظاهر متباينة الصيغ (حرارة النّادرة، التّهكم، التّضمين التّهكميّ)[28]

وفي الفصل الثّاني الّذي يعدّ الجزء الإجرائي في كتاب:" **بلاغة النّادرة**" وقد عُنون بـ: **صورة بخيل الجاحظ**، يعرض الباحث فيه القضايا التّالية:

01- القَلقُ المُسَلِّي:

يسعى بعض بخلاء الجاحظ إلى إثبات انتمائه الاجتماعي، وكأنّه يصارع تهمة تتربص به وفي سبيله إلى ذلك تستيقظ غريزة البخل المتمكّنة منه، لتحول دون أيّ سلوك قد ينفي عنه تلك التّهمة. ويظلّ البخيل يتوهم أنّه بالحيلة قد دارى بخله وأخفاه عن النّاس، بينما قد ينقلب

الموقف عليه ويزداد أمره افتضاحا لتدوّن حكايته في مأثور نوادر البخلاء، ويسوق مشبال قصة "محفوظ النّقاش" بطل النّادرة مثالا على ذلك.[29]

02- الشّحّ المُؤذِي:

فقد يصبح الإفراط في الشّح مصدر إلحاق الضّرر بالآخرين؛ فالبخيل لا يثير دهشتنا بالطّريقة العجيبة الّتي يلجأ إليها للاقتصاد فقط، ولكن أيضا بالعواقب الوخيمة التي تنجم عن نهج تلك الطّريقة، وعلى هذا النّحو فإنّ تجلّيات التّعجيب في مثل هذه النّوادر تتجسد في مظهرين؛ أولاهما: غرابة استعمال الشيء للمبالغة في التّوفير والاقتصاد. ثانيهما: المبالغة في الفعل أو تناقض جلال الفعل مع تفاهة الموضوع.[30] وفي تحليل قصّة جار أبي إسحاق النّظام (طلاق بسبب غسل الخِوان)[31] تجلٍ واضح للمظهرين.

03- التَّغافُل القَاسِي:

يعمد أحد البخلاء إلى اصطناع الحيلة لكي يتخلّص من ضيفه الّذي يدين له بالتزام اجتماعي لسابق إحسانه إليه، ومن أمثلة ذلك ما حدث في قصة (العراقيّ مع المروزيّ) الّتي حلّلها محمد مشبال في هذا العنصر، حيث تتقابل العناصر في الحكاية كالإصرار المتدرّج على كشف الهويّة، مقابل الإصرار المتزايد على التّغافل.[32]

04- مَوعِظَة الرَّقِيب:

قد يتصرّف البخيل مثل بقيّة النّاس، فيحاول أن يسلك أساليبهم ويتقمّص أدوارهم، كأن يتظاهر بالكرم فيقيم مأدبة ويستدعي إليها أصحابه، فهنا قد يصاب بالقلق كما وقع لمحفوظ النقاش مع الجاحظ.33 وقد نوقشت قبل هذا الفصل، كما قد يلجأ البخيل إلى بلاغة الكلام ليعوض نقص الطعام (طول الموعظة في مقابل قلّة الطّعام، وفي الموقف الذي قدمه مشبال من خلال نادرة "موسى بن جناح" لا يخفى على القارئ تناقض أسلوب الحديث مع الموضوع واقتران اللّقمة بالموت، والتّعارض بين دلائل الألفاظ الأصليّة المتواضع عليها والسّياق المستخدمة فيه. وهي سمات بلاغيّة شكّلت طرافة هذه النّادرة.[34]

05- الجَسَارة الشّرِهَة:

تعدّ صورة الأكول النّهم امتدادا لصورة البخيل ووجه الآخر؛ فالشّره مفرط في حبّ الأكل، ولطالما كانت هذه الصّفة موضوع تندّر وسخرية، ويضرب المؤلف مثاله لذلك بقصة علي الأسواري ومؤاكلته للأمير عيسى بن سليمان بن علي.35 وتظهر الحجّة الطّريفة كضرب من الاحتجاج والإقناع في القصة وتتمثل طرافتها في مجموعة سمات اعتمد عليها المؤلف لبناء طرافة هذه النادرة وهي: اختراق هيبة الأمير التّصوير الوهمي، اعتماد الاحتجاج والإقناع على الحقول المعرفية المختلفة، التّدقيق المفصل في الوصف.[36]

06- حُمَّى الغَيظ:

مثّل لهذا العنصر بقصة محمد بن أبي المؤمل.[37] الّذي مرض غيظا لما أن هجم عليه السّدري وهو أحد الأكلة حينما كان يتهيأ للانفراد بسمكة شهيّة، فانقلب الدّور الّذي اعتدناه مع البخيل المحتال إلى الضّيف الطّفيليّ، كما تصوّر النّادرة السدري منهمكا في التهام السّمكة، بينما يرقب البخيل هذه العمليّة بسلسلة من التّعليقات المعبّرة عن دهشته وغيظه. وهي صورة قائمة على نوع من التّقابل المضحك.

ربما كانت هذه النّادرة من النّوادر القليلة التي تتظافر في تكوين بلاغتها صورة البخيل بصورة الأكول الشّره، حيث يعمد السّرد إلى مواءمة سمات الصورتين في بناء يشكّل تنويعا جديدا في جنس نادرة البخل.[38]

خاتمة كتاب البلاغة والنادرة:

بيّن فيها أنّ القصيدة لم تكن هي الشّكل الوحيد في الثّقافة العربيّة، بل كانت فقط هي الشّكل الأكثر حضورا في السّاحة النّقديّة والوعي الجماليّ والبلاغيّ، هذا الحضور لم يمنع أشكالا نثريّة أخرى من فرض سلطة حضورها في السّاحة الأدبيّة، ومنها جنس "النّادرة" الّتي استطاعت أن تجد مكانا لها في أهمّ المؤلّفات الأدبيّة منها: البيان والتّبين، والحيوان، والبخلاء للجاحظ، والإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التّوحيدي، وغيرها من المصنّفات العربيّة الّتي حوت هذا الجنس الأدبيّ الرّفيع.

ولقد جسّدت النّادرة المكون الهزلي في الثّقافة العربيّة، ولقد سعى الكتاب إلى تناول هذا الجنس الأدبيّ فأظهر التّحليل أنّ النّصوص كانت إغناء للوعي النّظري والكشف عن إمكانية بلاغيّة لم يقف عليها النّقاد فيما وضعوه من جنس النّادرة.[39]

خاتمة البحث:

من خلال قراءات ومقاربات المشاركين في كتاب"من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة" الّذي سلّط الضوء على المشروع البلاغيّ لمحمّد مشبال خلصنا إلى النّتائج التّالية:

01- ضرورة إعادة قراءة البلاغة العربيّة القديمة قراءة جديدة تكشف أبعادها الحجاجيّة وتخلّصها من أسر المحسّنات البديعيّة والصّور الشّعريّة.

02- لابد من توفر الخطاب على الإفادة والإمتاع والإثارة وفق الأدوات البلاغيّة (البنائيّة/ الجماليّة) لتحقيق الخطاب الإقناعي المؤثّر.

03- الظروف التي صاحبت تشكّل البلاغة في التّراث العربيّ جعلتها مقتصرة على الشّعر ومأثور الكلام، وهذا حيّز ضيّق في حين أن مشبال يراها علما مدوّنته مطلق الكلام (نادرة- خبر- رسالة- رواية...)

04- البلاغة أوسع من أن تحصر في المدرسية الضيّقة، فهي تزاوج بين النّظر في بنية النّص ووظائفه.

05- بالإضافة إلى متعة التّصوير في كتاب البخلاء، فهو توجيه إلى بناء الأخلاق والأفعال نحو قيم الجود والسّخاء، وهذا ماثل أيضا في بلاغة السّخرية من خلال نثر الجاحظ حيث هي بلاغة إصلاحيّة للمجتمع.

06- إخراج النص القصصي من هيمنة البلاغة القديمة –الشعرية- فهو مختلف عن الشعر.

07- جمالية النّص السّردي القصصي تتجلى في بلاغة النّص الكلّية لا الجزئيّة.

08- تميّز السّرد القصصي بالجمع بين المكوّن الحجاجيّ والإقناعي والتّأثيري.

09- حتمية إعادة القراءة البلاغية الجديدة لكشف المحمول الدّلالي الجديد للنص والخطاب

10- من سمات السّرد عند الجاحظ: العري من المحسن البديعيّ- التّصوير(التّفصيل في رسم الشخصيات والأماكن وما تعلّق بها)- الطّرافة- التّعجيب – الضحك. ومن القضايا التي تصور البخيل عند الجاحظ: القَلقُ المُسَلِّي- الشّحّ المُؤذِي -التَّغافُل القَاسِي - مَوعِظَة الرَّقِيب- الجَسَارة الشّرِهَة- حُمَّى الغَيظ.

الإحالات:

1 - أَدَامَ الإِلَـهُ عَلَيْنَـا السَّـلاَم ** وَأَبْقَـاهُ نُـوْراً لَنَـا سَرْمَـدا)
فَهَذَا دُعَـائِيَ عِنْـدَ الرُّكُـوع ** (سَلاَمٌ) أُكَـرِّرُهُ سَـاجِـدا
فَأَمْسِي سَلاَمٌ وَيَـوْمِي سَـلاَمٌ ** وَأَرْجُـوْ دَوَامَ السَّـلاَمِ غَـدَا
فَـ(أَفْشُـوا السَّـلاَمَ) يَدُمْ وُدُّكُمْ ** كَذَا جَاءَ عَنْ سَيِّدِي (أَحْمَدَا)
إِلَـهِيَ آمَنْـتُ بِالسَّلْـمِ دِيْـناً ** فَزِدْ بِالسَّلاَمِ فُـؤَادِي هُـدَى
وَكُنْ لِي مُعِيْـناً وَكُـنْ لِي نَصِيـراً ** إِذَا مَا رَفَعْـتُ إِلَيْـكَ اليَـدَا
فَأَنْتَ (السَّلاَمُ) وَمِنْكَ السَّلاَمُ ** فَحَقِّقْ لِيَ المَجْـدَ وَالسُّـؤْدُدَا
وَأَزْكَى السَّـلاَمِ عَلَى المُصْـطَفَى ** وَأَرْجُـو بِـذَلِكَ أَنْ أَسْعَـدَا
الشاعر: محمَّد الحبيب بن الطَّاهر منَّادي.

2 - عبد الواحد المرابط وآخرون، من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة قراءة في أعمال البلاغيّ الدّكتور محمد مشبال، عالم الكتاب الحديث، إربد، الأردن، دط، 2017، ص:26.

3 - نفسه، ص:46.

4 - محمد مشبال، أسرار النقد الأدبي؛ مقالات في النقد والتواصل، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، ط:01، 2002، ص: 86.

5 - من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة، ص:62.

6 - محمد مشبال، البلاغة والأدب؛ من صورة اللّغة إلى صورة الأدب، دار العين للنشر، الإسكندرية مصر، ط:01، 2011. نقلا عن: من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة، ص:67.

7- بارت رولان ، تر/ عمر أوكان، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، 1994، نقلا عن: من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة، ص:69.

8 - محمد مشبال، أسرار النقد الأدبي؛ مقالات في النقد والتواصل، محمد مشبال، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، ط:01، 2002، نقلا عن: من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة، ص:71.

9 - محمد مشبال، البلاغة والأدب من صورة اللّغة إلى صورة الأدب، نقلا عن: من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة، ص:74.

10 - من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة، ص:85.

11 - محمد مشبال، البلاغة والسّرد؛ جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، دط، 2010، ص:15.

12 - ينظر: من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة، ص:105.

13 - ينظر: م ن، هامش ص: 108.

14 - م ن، ص:133.

15 - م ن، ص:159.

16 - ينظر: م ن، ص:135-146.

17 - ينظر: م ن، ص: 160.

18- ينظر: م ن، ص: 163-178.

19 - ينظر: م ن، ص:183-205.

20 - م ن، ص:205-206.

21 - محمد مشبال، بلاغة النادرة، دار جسور للطباعة والنشر، طنجة، المغرب، ط:02، 2002، ص:18-19.

22 - ينظر: م ن، ص:19.

23 - ينظر: م ن، ص:20.

24 - ينظر: م ن، ص:20-25.

25 - ينظر: البخلاء، ص:05، نقلا عن: بلاغة النادرة، ص:25.

26 - بلاغة النادرة، ص:27-28

27 - م ن، ص:28.

28 - ينظر: م ن، ص:30-41.

29 - ينظر: م ن، ص:45-49.

30 - ينظر: م ن، ص:49-50.

31 - الجاحظ، البخلاء، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1981، ط:05،ص:23-24.

32 - ينظر: بلاغة النادرة، ص:50-53. والبخلاء، ص: 22.

33 - ينظر: البخلاء، ص:123.

34 - ينظر: بلاغة النادرة، ص:54-57.

35 - البخلاء، ص:69.

36 - ينظر: بلاغة النّادرة، ص:57-59. ينظر:

37 - البخلاء، ص:100-101.

38 - بلاغة النّادرة، ص:60-63.

39 - نفسه، ص: 64-65.

قائمة المصادروالمراجع المعتمدة:

1. بارت رولان ، تر/ عمر أوكان، **قراءة جديدة للبلاغة القديمة**، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، 1994.
2. الجاحظ، **البخلاء**، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1981، ط:05،ص:23-24.

3. عبد الواحد المرابط وآخرون، **من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرّحبة قراءة في أعمال البلاغيّ الدّكتور محمد مشبال**، عالم الكتاب الحديث، إربد، الأردن، دط، 2017، ص:26.
4. محمد مشبال، **أسرار النقد الأدبي؛ مقالات في النقد والتواصل**، محمد مشبال، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، ط:01، 2002
5. محمد مشبال، **البلاغة والأدب؛ من صورة اللّغة إلى صورة الأدب**، دار العين للنشر، الإسكندرية مصر، ط:01، 2011.
6. محمد مشبال، **البلاغة والسّرد؛ جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ**، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، دط، 2010
7. محمد مشبال، **بلاغة النادرة**، دار جسور للطباعة والنشر، طنجة، المغرب، ط:02، 2002، ص:18-19.